التفسيرات الغربية لنشأة الدين في حياة الشعوب والرد عليها (نظرية تطور الدين إنموذجاً)

Western Interpretations of the religion's Origin in People›s Lives and Responses to Them: The Theory of the Evolution of Religion as a Model

إعداد الباحث

أ. م. د. علي داود خلف الجنابي

كلية الإمام الأعظم الجامعة

Asst. Inst. Dr. Ali Dawood Khalaf Al- Janabi

Al-Imam Al-Adham University College

Dr.alidaoud4@imamaladham.edu.iq

07732435693

الملخص

يناقش هذا البحث مفهوم الدين عند المفكرين الغربيين، القدامى منهم والمعاصرين، لمعرفة أبرز النظريات التي طرحوها والراجح منها عندهم، ويهدف البحث إلى معرفة مكانة الدين عن المفكرين الغربيين، وهل ان رؤيتهم تتماشى مع ما يعتقد علماء المسلمين ومفكريهم من انه وحي إلهي، أم أنهم يرون بأنه تعليمات وسلوكيات يضعها أشخاص لهم مقبولية في مجتمعاتهم؟، وبعد التعرف على أقوالهم في هذا الموضوع، توصل الباحث إلى أن علماء الغرب ومفكريهم ينفون ربط الدين بالوحي، ولا يعتقدون بأنه توجيهات إلهية، بل يعتقدون بأنه عبارة عن جهد بشري قابل للنقد والتعديل بمرور الزمن، ثم عمل الباحث على تفنيد هذه الرؤية.

الكلمات المفتاحية : (نشأة، الدين، تطور، الغرب، نظرية).

Abstract:

This research discusses the concept of religion according to ancient and contemporary western thinkers، aiming to identify their prominent theories and which ones they consider most valid. The research seeks to understand the statues of religion among western thinkers and weather their views align with those of Muslim scholars and thinkers، who regard religion as divine revelation، or if they see it as a set of instructions and behavior established by individuals who are accepted in their societies. After examining their opinions on this topic، the researcher concluded that western scholars and thinkers deny the association of religion with revelation. they do not believe it to be divine guidance but rather view it as a human effort that subject to criticism.

Keywords : (Origin، Religion، Evolution، the West، Theory).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نشأة الدين موضوع مهم، ويعرف ويفهم حسب تعريف كل إنسان له بناءً على خلفيته الفكرية والعقدية، وأغلب التعريفات عند علماء الغرب ومفكريهم هي تعريفات ذاتية، أي أنها تحاول إثبات صحة ما يؤمن به الإنسان وإخراج مالا يؤمن به ويعتقد به، على عكس علماء الدين المسلمين الذين لهم ضوابط واضحة المعالم في تعريف الدين وتحديد مكانته، وانطلاقاً من هذا الخلاف الجوهري في تحديد مفهوم الدين بين الفريقين، فقد حاول كثير من العلماء الغربيين تفسير ظاهرة التدين في حياة الإنسان، ولكن بما أنهم اختلفوا في تعريف الدين فقد اختلفوا أيضاً في محاولة تفسير نشأة الدين، وكثير منهم اعتبره نمط من أنماط السلوك في علم الاجتماع الديني، وانه خاضع لنظرية التطور، ويرون بأن كثير من العقائد الموجودة في الأديان ما هي إلا صناعة ذهنية إنسانية وليست وحي من الله الخالق.

وعليه فقد عملوا على ربط نشأة الدين في حياة الشعوب بالتكيف التطوري، وأن الدين ما هو الا ظاهرة اجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان، في حين يُقدِّم بعض العلماء ربطًا بين (الدِّين والأخلاق)، لكنَّ هذا الرَّبط يُعدُّ متأخِّرًا في تاريخ الأديان؛ لذلك جاء هذا البحث للخوض في هذه التفصيلات المهمة لمعرفة فلسفة علماء الغرب ومفكريهم حول الدين ومكانته في حياتهم.

خطة البحث:

المبحث الأول : تمهيد لبيان مفهوم مصطلح الدين وماهية التفسيرات الغربية لنشأة الدين.

المطلب الأول : مفهوم الدين بين رأي العلماء الغربيين والعلماء المسلمين.

المطلب الثاني : التفسيرات الغربية لنشأة الدين.

المبحث الثاني : نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها.

المطلب الأول : نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها.

المطلب الثاني : نقد نظرية تطور الدين والرد عليها.

المطلب الثالث : موقف العقيدة الإسلامية من مسألة نشوء وتطور الأديان.

الخاتمة.

المبحث الأول
تمهيد لبيان مفهوم مصطلح الدين وماهية التفسيرات الغربية لنشأة الدين

المطلب الأول : مفهوم الدين بين رأي العلماء الغربيين و رأي العلماء المسلمين.

أولا: تعريف الدين :

كلمة دين في اللغة العربية تعني عدة معان، وذلك بتأثير الفعل الذي يؤخذ منه الكلمة، "فالدين مشتق من الفعل الثلاثي دان، وهو يتعدى بنفسه، وتارة باللام، وتارة بالباء، ويختلف المعنى باختلاف ما يتعدى به، فإذا تعدى بنفسه يكون «دانه» بمعنى ملكه، وقهره وساسه، وحاسبه، وجازاه، وإذا تعدى باللام يكون «دان له» بمعنى خضع له، وأطاعه، وإذا تعدى بالباء يكون « دان به» بمعنى اتخذه ديناً ومذهباً واعتاده، وتخلق به، واعتقده [1].

وترجع هذه المعاني اللغوية في الدين إلى معان اصطلاحية تم تداولها لبيان العلاقة الوثقى بين العابد والمعبود ؛ لأن الدين يتماهى مع فكرة الإخضاع لا بصورة الإذلال بل يتعامل مع الحاجة النفسية في تكوين الإنسان الخلقي إلى مرجعية روحية تمثل الملاذ الآمن للرجوع دون إكراه ولا إجبار، وذكر محمد عبد الله دراز[2] المتأمل فيما ذكرته المعاجم اللغوية لمعاني كلمة الدين، يجد أن هذه المعاني كثيرة وبعيدة عن بعضها؛ لذا فالمعاجم اللغوية لا تضع أيدينا على المعنى اللغوي المراد بمفهومه الدقيق لتعريف كلمة الدين، وإنما تكشف لنا عن الوجوه المُتشعّبة لمعاني هذه الكلمة. ونلتمس لهذه المعاجم العذر؛ لأنّها وُضِعت لضبط الألفاظ، لا لتحديد المعاني[3].

---

(١) لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.،١٣/١٥٥-١٧٠، القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، الطبعة الرابعة،١٤١٥هـ-١٩٩٤م ٤/ ٢٥٥ باب النون، فصل الدال.

(٢) الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، ط٢ (١٣٩٠هـ ١٩٧٠م)، ص ٣٣.

(٣) الدين، محمد عبد الله دراز، ص٢٢

ثانياً :الدين إصطلاحاً: تتعدد التعريفات الاصطلاحية للدين سواء عند الغربيين أو عند علماء المسلمين.

إن كل عالم حاول أن يستمد تعريفه للدين حسب فهمه ومجال تخصصه، فنجد عند :

١- اميل دور كايم [١] يعد الدين «مؤسسة إجتماعية قوامها التفريق بين المقدس وغير المقدس، ولها جانبان أحدهما روحي مؤلف من العقائد والمشاعر الوجدانية، والاخر مادي مؤلف من الطقوس والعادات، والملاحظ أن تعريف أميل دور كايم، يتوافق مع المفهوم الاجتماعي للدين، وهو من خلال هذا التعريف يكرس فكرة الاتصال الروحي من خلال التحليل الإجتماعي والفكري للمتدينين، والتمييز بين ما هو مقدس وغير مقدس، فضلا عن التباين الظاهر بين الروحي والمادي في العقيدة وممارسة الشعائر، وأنطلاقاً من فكر الإجتماع الديني الذي لا يميز بين الدين الموحى به من عالم الغيب، والدين الذي صنعه الأنسان على الأرض»[٢].

٢- كانت[٣] عرف الدين في حدود العقل، بقوله : « الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية « .

٣- شلاير ماخر[٤] في مقالاته عن الديانة، يقول: «قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة»[٥].

٤- الأب شاتل في كتابه قانون الإنسانية يعرفه بقوله : « الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق: واجبات الإنسان نحو الله، و واجباته نحو الجماعة، و واجباته نحو نفسه» [٦].

---

(١) «فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، وأحد مؤسسي علم الأجتماع الحديث» ينظر : رواد علم الأجتماع، ص ٥٨.

(٢) ينظر : الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم، ص ٤٥.

(٣) إمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٩٤م): فيلسوف الماني وضع العقل في صلب الوجود ومحوره، من مؤلفاته: نقد العقل الخاص- نقد الحكم - اسس ما وراء الأخلاق،. ينظر :الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وزميلاه ،بيروت، دار القلم، ص٣٢٩-٣٣٠.

(٤) فيلسوف وعالم لا هوتي، عرف عنه محاولته التوفيق بين الأنتقادات الموجهة إلى التنوير مع المسيحية البروتستانتية التقيدية، وهو فيلسوف مؤثر في تطور النقد العالمي ينظر : الدين بين الأخلاق والميتافيزيقا عند شلاير ماخر، ص ١١.

(٥) الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم، ص ٤٧.

(٦) الدين، عبد الله دراز، مؤسسة اقرأ، ص٣٤.

٥- وايتهد [١] يعرفه بقوله : «إنّ الدين عيانٌ لشيءٍ يقوم في ما وراء المجرى العابر للأشياء المباشرة، أو خلف هذا المجرى، أو في باطنه ؛ شيءٌ حقيقيٌّ ولكنه مع ذلك لا يزال ينتظر التحقق، شيءٌ هو بمثابة إمكانيّةٍ بعيدة، ولكنّه في الوقت نفسه أعظم الحقائق الراهنة ؛ شيءٌ يخلع معنى على كلّ ما من شأنه أن ينقضي ويزول ولكنّه مع ذلك يند عن كل فهم ؛ شيءٌ يعدّ امتلاكه بمثابة الخير الأقصى ولكنّه في الآن نفسه عصيٌّ بعيدُ المنال، شيءٌ هو المثل الأعلى النهائي ولكنّه في الوقت نفسه مطلبٌ لا رجاء فيه».[٢]

وهنا نجد وايتهد نحى منحى صوفيا في تعريفه للدين ويبين أنه عبارة عن عقيدة باطنية يعيشها المؤمن وينتظر أن تحقق له شيء ولكنه بعيد المنال، وهي أقرب ما تكون لأفكار المتصوفة.

إما تعريف الدين عند علماء الأنثروبولوجيا" [٣] كلباترك[٤] « فهو مجموعة من الأفكار المجرّدة والقيم أو التجارب القادمة من رحم الثقافة، ولذلك فالدّين هو رؤيةٌ لا غنى عنها في العالم تحكم الأفكار الشخصية والأعمال، والمعتقد الديني يرتبط عادةً بالطبيعة، الوجود، وعبادة إلهٍ واحدٍ أو آلهة، وإشراك الآلهة في الكون والحياة البشريّة وقد يتعلّق ذلك بالقيم والممارسات التي تنتقل من قِبل الزعيم الروحي للديانة في بعض الديانات، أما في الديانات الإبراهيمية السماوية فمعظم المعتقدات الأساسية قد كشفت من خلال الإله، أي عبر الوحي الإلهي لأحد الأنبياء أو الرسل « [٥].

أن علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) لا يميزون بين الثقافة والدين ويعدون الثقافة اسبق وأعم وأشمل، وأن الدين جزء من الثقافة وهذا يبنى عليه فكرة أن الثقافة والدين والفن والفلسفة شيء واحد صنعه الإنسان كما يعتقد علماء الأنثروبولوجيا الغربيين[٦].

---

(١) هو ألفريد نورث وايتهد، فيلسوفانجليزي و من فلاسفة الواقعية ينظر : اميتافيزيقيا وايتهد، مكتبة النور، ص٩

(٢) وايتهيد، الفرد، كيف يتكوّن الدين؟، ترجمة وتقديم : رضوان السيّد، جداول للنشر، آذار- مارس ٢٠١٧م،

(٣) ينظر : نحو علم الإنسان، أكبر أحمد ،دار النفائس للنشر والتوزيع، ص ٧٩

(٤) هو ويليام هيرد كيلباتريك، تربوي وفيلسوف أمريكي ينظر : رواد علم الأجتماع، ١٩٥.

(٥) موسوعة لالاند الفلسفية،، ترجمة: خليل احمد خليل، إشراف :احمد عويدان، دار عويدا، بيروت – باريس، ط١، ص١٢٠٣-١٢٠٤.

(٦) ينظر : الإسلام من وجهة نظر علم الاناسة، كليفورد غيرتز، ترجمه أبو بكر باقادر، المؤسسة الجامعية

الدين عند علماء الدين الإسلامي:

إما الإسلاميون فقد أشتهر عندهم تعريف الدين بأنه، وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل.

أو هو وضع إلهي يرشد إلى الحق في الإعتقادات،وإلى الخير في السلوك والمعاملات[١].

فعند :

١- أبوالبقاء الكفوي في كتابه الكليات، عرف الدين بقوله : عبارة عن وضع إلهي سائق لذوي العقول بأختيارهم المحمود إلى الخير بالذات قلبيا كان أو قالبيا، كالاعتقاد بالعلم والصلاة، وقد يتجوز فيه فيطلق على الأصول خاصة فيكون بمعنى الملة، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾[٢] وقد يتجوز أيضا، فيطلق على الفروع خاصة، أي الملة القيمة يعني فروع هذه الأصول[٣]، وقد يتجوز فيه أيضاً، فيطلق على الفروع خاصة، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[٤]، أي الملة القيمة يعني فروع هذه الأصول[٥]، كذلك لم يبتعد الإمام الجرجاني في تعريفه للدين، إذ عرفه أنه : «وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى ما هو عند الرسول محمد ﷺ[٦]، فالدين والملة متحدان ومختلفان بالاعتبار، فالشريعة من حيث إنها تطاع تسمى ديناً، ومن حيث إنها تجمع تسمى ملة، ومن حيث إنها يرجع إليها تسمى مذهباً، وقيل الفرق بين الدين والملة والمذهب، هو أن الدين منسوب إلى الله سبحانه وتعالى، والملة منسوبة إلى الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد».

ويعرفه التهانوي فيذكر : «الدين وضع الهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه يرشدهم الى الصلاح في الحال والفلاح في المآل»[٧].

للدراسات والنشر، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ١٠٨.

(١) الدين، ص ٣٤-٣٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية١٦١.

(٣) الكليات، ابولبقاء الكفوي، ، تحقيق : عدنان درويش، ط٢، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٨م، ص١٨٢.

(٤) سورة البينة، الآية ٥.

(٥) ينظر تفسير الطبري، ص٥٩٨.

(٦) ينظر : الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ناصر العقل، ص ١٠.

(٧) كشف مصطلحات الفنون، التهانوي، ١٤١/٢.

ومن خلال ما تقدم نجد أن هناك ضوابط لتعريف الدين عند علماء المسلمين مقارنة بالعلماء الغربيين :

أولاً : أن كلمة الدين لا تطلق إلا على الدين الصحيح النازل من السماء، أما الأديان الوضعية التي صنعها الإنسان فلا تسمى ديناً لأن الدين وضع الهي نازل من السماء، بينما العلماء الغربيين لم يميزوا بين أنواع الأديان ولا درجاتها ولا مصادرها واعتبروا أي معتقد يسمى دين حتى لو كان مجرد طوطم[1] .

ثانياً : أن العلماء المسلمين اعتبروا أن الدين أعم وأشمل من الثقافة والثقافة جزء من الدين وعلى سبيل المثال فالثقافة الإسلامية مستمدة من الدين الاسلامي، وهكذا كل الثقافات، بينما العلماء الغربيين اعتبروا الثقافة أعم وأشمل وأن الدين جزء من الثقافة وكلها من صنع الإنسان.

ثالثاً:أن العلماء المسلمين ذكروا في تعريفهم للدين فائدة الدين وهي «الصلاح في الحال» أي إصلاح الانسان في الدنيا، «والفلاح في المآل» أي في الآخرة.

بينما نجد العلماء الغربيين لم يتطرقوا نهائياً لفائدة الدين في حياة الشعوب، وانطلاقا من البراجماتية التي يؤمن بها الغرب، فالدين لا فائدة منه وبالتالي هو مجرد ظاهرة اجتماعية في حياة الإنسان انتهى دورها في عصر العولمة.

رابعا : أن التميز الدقيق لدى علماء الدين الإسلامي بين الدين والملة والمذهب، بهذه المصطلحات الثلاث، وأن كان بينهما أرتباط، فهي كلها تعود إلى الأصل وهو الدين وهو واحد خلاف الملة فيمكن للملل ان تتعدد كملة سيدنا محمد وملة سيدنا عيسى باعتبار التابعين لهذا الدين أو ذاك، تتحكم في ذاك مناطق وجود أتباعه جغرافيا وبيئيا وثقافيا، إذ تتلقي هذه الجماعات الدين بصور قد تختلف في بعض التفاصيل ،[2] مثلا في الدين الإسلامي المسألة تكون أكثر وضوحا، إذ إن الدين من الله أي من الوحي، والملة هي ملة الرسول والأنبياء وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

---

(١) ينظر: فهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد خير، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م: ١/٢٠٥.

(٢) ينظر : الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار العلم للنشر والتوزيع – القاهرة، ٢٠٠٣م.، ص ١٢٥.

وبالقياس على أصل الشريعة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإن المذهب يعود إلى اجتهاد العلماء، مثل اجتهاد الأئمة الأربعة و غيرهم من أصحاب المذاهب الفقهية.

المطلب الثاني : التفسيرات الغربية لنشأة الدين.

حاول كثير من العلماء الغربيين تفسير ظاهرة التدين في حياة الإنسان، وكما اختلفوا في تعريف الدين اختلفوا أيضاً في محاولة تفسير نشأة الدين، وكثير منهم اعتبره نمط من أنماط السلوك في علم الاجتماع الديني.

فلو اخذنا رأي أتران (Atran) وبويرا [١] (Boyer) الذي أعتبر ظاهرة الدّين على أنه «خليط كبير من الأفكار والسلوك مع العديد من الأصول التطوُّريةَّ المستقلة، التي توجد خارج الدّين نفس» [٢].

يتضح من النص المنقول أنه يفسر ظاهرة الدين على أنه مجرد شكل من أشكال السلوك و هو خاضع لنظرية التطور و سنشير إلى ذلك لاحقا.

ويقرر أيضاً أن كثير من العقائد الموجودة في الأديان ما هي إلا صناعة ذهنية إنسانية إذ «يمتلك البشر القدرة الذهنية على خلق صور لعوامل غير قابلة للملاحظة، وهي عوامل تدفع الأشياء الحقيقية إلى الحدوث، فهناك أمثلة لا حصر لها في الدّين عن العوامل غير القابلة للملاحظة مثل : الآلهة والأشباح والسحرة والملائكة والأرواح والأجداد المتوفين والقدّيسين الرعاة والشياطين والكائنات الفضائيةَّ وأبطال الثقافة»[٣].

أما النموذج الثاني الغربي في تفسيره لظاهرة التدين، فهو المصنف الفئوي المقدَّس، ويقرر أصحاب هذه الفكرة أن القدرة العقلية تقسم الأشياء على أصناف مدنسَّة و مقدَّسة، و يعد المقدَّس أسمى وأقوى يجب التعامل معه باحترام، إذ تنشأ قواعد السلوك بالنسبة إلى الأشياء

---

(1) Atran، S; Norenzayan، A (2004). "Religion's evolutionary landscape: counterintuition، commitment، compassion، communion" . The Behavioral and Brain Sciences. Behavioral and Brain Sciences. 27 (6): 713–30، discussion 730–70. نقلا من موقع www: wikipiedia.org.

(٢) ينظر : الدين والعلم، شكري بوشغالة، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ص ٦٩.

(٣) ينظر: الأديان في علم جان بول ويليم، ترجمة: نسيمة بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت (١٤٢١هـ ٢٠٠١م)، ص ٦٩.

المقدَّسة وغير المقدَّسة، ويتبع كثير من علمائهم هذه الفكرة، فمثلاً ناقش (روي راب ١) القدسيةَّ باستفاضة وحاول ربطها بالتكيُّف التطوُّري وذلك لأنَّها تحاول السيطرة على الطريقة التي تتعامل بها الجماعات البشريَّة مع البيئة، إذ تنسق الإشارات القدسية الاستجابات الجماعية تجاه التغيرات البيئية، كما أشار آخرون إليها أيضاً مثل (دوركهايم) إذ عامل القدسيةَّ على أنها عنصرمركزي في تعريفه، و يقترح عالم الأنثروبولوجيا الإدراكية (باسكال بوير)[٢] في كتابه «الدين مُفَسّراً» : «أنّه لا يوجد تفسير بسيط للوعي الديني، وهو يعتمد في ذلك على أفكار علماء الأنثروبولوجيا المعرفية» [٣]، أي تطور المعرفة الإنسانية.

وأما النموذج الثالث لظاهرة السلوك الديني، فهو التضحية العامَّة، وفقًا لنظريات إيرونز وسوسيس وألكورتا، ويعد من قبيل الإلتزام التضحية تجاه مجموعة خاصة من خلال تفعيل فكرة التعاون بين أفرادها، ووفقًا لإيرونز وسوسيس «فإنَّ صعوبة تزييف أعمال التضحية تبينّ للجماهير أنهَّ يمكن الوثوق بفرد ما، و ليست كلُّ التضحيات دينيةًّ؛ فالتضحيات الدينيةَّ تتميز بطابعها الذي يقوم على الإيثار»[٤]، وتتمُّ بصورة علنية متفاخر بها، ويمكن الإسترشاد بفلسفة المقدس المشتركة، و قد يستفيد الأقارب والذرية من التضحيات غير الدينية، ويمكن تفسّيرها بشكل أفضل تطوريا باعتبارها إيثارًا لذوي القربى، ويضع التعقيد الذي يسمي تبادل الإشارات في التضحية العامَّة تطوُّرها في وقت لاحق لتبادل الإشارات المتعلق بـ (التراسل الرمزي المقدَّس)[٥].

و هكذا نتوصل إلى تعريف مؤقت للدين بوصفه «سلوك داخل أيّ واحد من هذه النماذج الثلاثة المنفصلة»[٦].

يتضح لنا مما سبق أن العلماء الغربيين حاولوا تفسير ظاهرة الدين، لكن وفقا لنظرياتهم المادية التي تنكر الغيب والوحي، وتؤمن بنظرية التطور التي فسرت أصل الإنسان عندهم،

---

(١) روي آى رابابورت ١٩٦٧ Roy A. Rappaport خنازير السلف: طقوس في علم البيئة من سكان غينيا الجديدة.

(٢) عالم نفسي فرنسي ولد في القرن العشرين ينظر : مجلة الطبيعة عدد ٢٠٠٨م

(3) Lienard، P.; Boyer، P. (2006). "Whence collective rituals? A cultural selection model of ritualized behavior". American Anthropologist. 108: 824-827.

(٤) المقدس والعادي، إلياد مرسيا، ترجمة عادل العوى، صحارى للصحافة، ١٩٩٤م، ص ١٠

(٥) ما أصل الإنسان، موريس بوكاي ص٣٠

(6) https://ta3riif.blogspot.com/2019/03/blog-post.html

فحاولوا ربط نشأة الدين في حياة الشعوب بالتكيف التطوري، وأن الدين ما هو الا ظاهرة إجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان.

ولعل ما يَلفِتُ النَّظرَ في الظَّاهرة الدينيَّة أن الفكرة التطورية الدَّاروينية للعلوم الطبيعيَّة في القرن التَّاسع عشر لعلماء الاجتماع في القرن العشرين أدت إلى طرح أسئلة تطوريَّة حول الوظيفة التَّكيُّفيَّة التي يُقدمها الدِّين للإنسان في تطوُّرِهِ، عليه فقد ظهرت نظريَّات كثيرة لتفسير نشأة ظاهرة الدِّين واستمراريَّتها التَّاريخيَّة، إذ فسَّر كلٌّ منها جانبًا ما من الظَّاهرة دون أن يَشملها بشكل عام.

فمثلًا: «قدَّم إميل دوركايم ومدرسَتُه تفسيرًا يربطُ بين (الدَّين والتَّماسك الاجتماعي)، إذ يكون الدِّين هو مصدر ذلك التَّماسك»[١]، «لكنَّ أنظمة القرابة المُتَأسِّسة على رابطة الدَّم سواء في المجتمعات البدائيَّة المعاصرة أو في مجتمعات الصَّيد وجمع الثِّمار القديمة تُقدِّم رابطة أقوى لذلك التَّماسك، عوضًا عن أن الدِّين قد يلعب دورًا عكسيًّا في حالات أخرى فيؤدِّي إلى انشقاقات أو انقسامات اجتماعيَّة»[٢]، وكذلك يُقدِّم بعض العلماء ربطًا بين (الدِّين والأخلاق)، لكنَّ هذا الرَّبط يُعدُّ متأخِّرًا في تاريخ الأديان، فالشَّر في الدِّيانات القديمة مفهوم وجوديّ وليس أخلاقيًّا؛ بمعنى أنَّ الإنسان ليس مسئولًا عن وجوده في العالم[٣]، لأنَّ العالَم وفقًا لهذه الدِّيانات لا يحكمهُ إله الخير المطلق فقط مثلما هو الحال في الدِّيانات التَّوحيدية[٤]، وإنَّما تتنازعهُ آلهة الشَّر إلى جانب آلهة الخير؛ فالشَّر وفق هذا المنظور هو أمرٌ طبيعيّ يتخلَّلُ نَسِيجَ الكونِ ويُمثِّل جزءًا لا يتجزَّأُ من بنيتهِ، بل يستحيل مقاومة الإنسان لطبيعته الإلهيَّة الخارقة، «وبالتَّالي لم يعرف الدِّين قديمًا الرَّبط بين الدِّين والأخلاق، وكان علينا أن ننتظر ميلاد الدَّيانة الزَّرادشتية كأوَّل ديانة توحيديَّة لإقامة ذلك الرَّبط»[٥].

---

(١) ينظر : دين الإنسان، فراس السواح، بحث في ماهية الدِّين ومنشأ الدافع الديني، دمشق: دار علاء الدين، د. ت، ص١٢٢.

(٢) ما أصل الإنسان، موريس بوكاي، ص٣٢.

(٣) التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين، ترجمة: مصطفى فهمي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥، ص١١٠

(٤) ينظر :تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ٩/١

(٥) تاريخ علاقة الارتباط بين التنظيم الاجتماعي والأخلاقيات والدين، دافيد سي. لاتي، ص١١١

وقد عقد علماء آخرون صلة بين (الدِّين والطُّمأنينة النَّفسيَّة وإقامة المعنى) لكن هذه العلاقة لا يمكن تجاهلها بسبب الجانب الروحي الذي تكتمل به فائدة الدِّين وربما يتحول إلى مصدر قلق في نفس الفرد بسبب ما يتعرَّض الإنسان له من ضغط المساومة بين مبادئه الدِّينية وحياته العمليَّة، وربما يتعرض للخذلان بسبب ما يعانيه في انتظار خلاصه كما يصرِف وقته في إعمال فكره وعقله لترميم أفكار الدين التَّقليديَّة التي أقامها بداخله في مواجهة العبثية الحياتية ، وقد تحدث فرويد المشهور بعصابة الحياة في كتبه لكننا نواجه فيها الضبابية والتخبط الذي يعيشه علماء الغرب في محاولة تفسير الظاهرة الدينية وبناء على ما تقدم فأن الباعث على التدين أو الدافع الذي جعل الإنسان ينشئ هذه الظاهرة السلوكية الاجتماعية حسب رأيهم هو شيء يتعلق بالإنسان والطبيعة [1]، واختلفوا في تحديده إذ جاء بثلاثة أقوال :

١- قول جيفونس[2]: «أن الدافع إلى التدين الذي دفع الإنسان الى هذا السلوك هو الخوف من الطبيعة حوله بما فيها من برق، ورعد، وزلازل، وبراكين، وحيوانات متوحشة، جعلت الإنسان في الأزمان القديمة وهو الضعيف الذي لا حول له ولا طول مع هذه الأحوال المتغيرة حوله يبحث عن قوة غيبية لها سيطرة وتأثير في هذه الطبيعة حوله، ولها قدرة على حمايته وحفظه، فألَّهَ وعبد ما يرى أنه أقوى وأقدر على حمايته من المخلوقات التي حوله كالشمس والقمر والبحر ونحو ذلك».[3]

وهذه النظرية تتحد مع النظريات السابقة في ادعائها أن مصدر العقيدة الدينية هي العوامل النفسية التي يشعر بها الفرد في مواجهة أعباء حياته اليومية، ولكن النظرية السابقة تواجه من هذه الحياة جانبها المتصل بقوانين الطبيعة الثابتة[4]، التي تصطدم بها الإرادة فلا يسعها إلا الخضوع والاستسلام للقوة التي فرضت هذه القوانين، وأحكمت وثاقها.

---

(١) نشأة الإنسان والإنتقاء الجنسي، تشارلز داروين، ترجمة: مجدي محمد المليجي (نشر وتوزيع المجلس الأعلى للثقافة / القاهرة) ط١، ٢٠٠٥م، ٢٥٠/١.

(٢) هو وليم ستانلي جيفونز عالم منطق وأقتصاد انكيزي وأستاذ بجامعة مانشستر ينظر الموسوعة العربية.

(٣) قصة الحضارة، ديورانت ول : ترجمة زكي نجيب محمود، الأدارة الثقافية، ٩٨/١.

(٤) يُنظر : قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب واحمد امين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة / القاهرة)، ١٣٥٥هـ، ص٢٤٤.

ويعتمد (هنري برجسون)[١] في كتابه (ينابيع الخلق والدين) على جانبين آخرين من تلك الحياة العادية أحدهما : «يرتبط بالقوانين الأدبية التي يفرضها المجتمع وما فيه من العرف والعوائد[٢]».

والآخر : «يتعلق بالحوادث المستقبلة، التي تُفتح لها أبواب الإمكان، وتتسع للاحتمالات وللمصادفات، فلا يمكن التنبؤ بها بصفة قاطعة»[٣].

وقد تنشأ العقيدة الدينية بدافع من الشعور بالمسؤلية تجاه الجانب الاجتماعي، فبيان ذلك أنه لا بد للفرد أن يتخلى عن الحرص على منافعه الخاصة لصالح منفعة المجموعة التي ينتمي إليها، وتضحيته بجزء كبير من حريته، وتحمله أعباء تقتضيها مصلحة غيره ولا يعود عليه منها فائدة مباشرة.

٢- قول (ماكس موللر) : [٤] أن العقل هو الباعث على التدين وهو الذي دفع الانسان الى إنشاء الدين في حياته، فالإنسان تميز عن بقية الحيوانات بالعقل والإدراك، وهو الباعث الأساسي على التفكير في نشأة هذه المخلوقات والإعجاب بدقة صنعها، وتعظيمها، ثم بعد مدة من الزمن نضج فكره وأصبح العقل يفكر فيما وراء الطبيعة، ونما عقله مع اللغة المستخدمة في الحديث عن الجمادات إلى عدها من الأحياء ذوات الأرواح، فصار يتحدث إليها ويتشوف فيها الضر والنفع ثم تطور به الأمر إلى عبادتها وتقديسها ، وهكذا نشأ الدين في حياة الإنسان بسبب تفكيره العقلي الذي دفعة الاعتقاد بقوة موجودة في الطبيعة تستحق أن تعبد وتسيد وتطاع[٥].

٣- قول (دوركايم الفرنسي) : [٦] «تعد الحاجة الإجتماعية المحضة الباعث على التدين، فالإنسان يعيش في جماعات وهو كائن اجتماعي بطبعه والمجتمعات البشرية تحتاج إلى

---

(١) فيلسوف فرنسي حاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٢، ويعد من أهم الفلاسفة في العصر الحديث له عدة مؤلفات منها التطور الخالق.

(٢) اتطور الخالق، هنري برجسون، المركز القومي للترجمة ص١١٢.

(٣) هذا قول الانجليزي جيفونس في كتابه "المدخل إلى تاريخ الديانات" نقلا عن كتاب الدين د. محمد دراز ص١٢٥.

(٤) مستشرق ألماني من علماء اللغات والدارسين المتعمقين في دراسة الأساطير والأديان توفي ١٩٠٠م، الأعلام ١٤٥/٥.

(٥) الدين، محمد دراز ص٣٨.

(٦) هو أميل دور كايم عالم إجتماع فرنسي توفى ١٩١٧م. ينظر المنجد في الاعلام ص٢٩٠.

نظم وقوانين تحفظ الحقوق وتصون الحرمات»، فأوجد بعض البشر ظاهرة التدين لوضع القوانين المنسوبة للإله حتى تضبط السلوك الإنساني ويؤدي كل إنسان واجبه بمراقبة داخلية، واستطاع رجال الدين أن يسيطروا على المجتمعات ويضبطوا سلوكها من خلال فكرة التدين، والتضحية لأجل الدين.

يظهر واضحاً مما سبق سبب ادعائهم أن الدين مصدره الإنسان، وأن باعثه مشاهداته اليومية للظواهر الطبيعية المثيرة لإعجابه أو دوافع نفسية في الإنسان نفسه [1].

ومن خلال هذه التفسيرات المادي لنشأة الدين في حياة الشعوب، نجد أن العلماء الغربيين يستبعدون فكرة الغيب وعالم الغيب فهم لا يؤمنون الا بالمحسوس الموجود، وكل تفسيراتهم المنطق الأساس لها هو الوجودية ونظرية التطور، والرد عليهم يكون من خلال اثبات أن هناك عالمين عالم الغيب وعالم الحس، والغيب وهو الأعظم والأكبر وأنه لا يستطيع أي عالم أن يأتي بدليل مادي قاطع ينفي هذا العالم فالإنسان لم يستطع أن يحيط بالمحسوس من هذا الكون وهذا ما أثبت كثير من علمائهم فقالوا بأننا محاطين بعالم مظلم من الأسرار الكونية التي لم يستطع العلم تفسيرها فكيف يحكم على الغيب ونحن لم ندرك المحسوس.

وبخلاف الفكر الغربي، يقرر العلماء المسلمون أن الباعث على التدين : هو الفطرة، وصدر الدين الأوحد هو الوحي الإلهي، فقد نص القرآن الكريم والسيرة النبوية المشرفة على أن الإنسان مفطور على الإقرار بالخالق والعبودية له والبراءة من الشرك ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2].

وقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[3].

تشهد الآية الكريمة للآية التي قبلها من خلال بيان أن الله عز وجل فطر ذلك في قلب أدم أبي البشر، وأنه حين خلقهم في بطون أمهاتهم وقبل ذلك أصلاب آبائهم أخذ عليهم المواثيق.

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً

(١) ينظر : الله جل جلاله" للعقاد، ص١١٧.

(٢) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٣) سورة الاعراف، الآية ١٧٢.

بها فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك»[١].

ومما يدل على فطرة الله للبشر في قضية الدين حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال النبي ﷺ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء»[٢] ومنه حديث عياض بن حمار المجاشعى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً..»[٣].

فهذه أدلة دامغة على أن الإنسان مفطور على التدين مذ خلق الله أبي البشر آدم وهي حاجة روحية مائزة رفعت الإنسان درجات على بقية المخلوقات وهو مبعوث في الآخرة عليها.

ومن خلال هذه هذه الأدلة يتضح أمران هما:

الأول هذه الفطرة لعبادة الله عز وجل تتأثر وتتغير وتنحراف بفعل مؤثرات خارجية، مرد ذلك انحراف الأمم السابقة و اللاحقة ورغبتها في عبادة الوثنيات والتماثيل في الأمم القديمة والحاضرة وقد وردت هذه المؤثرات في النصوص.

الثاني : تقسم هذه المؤثرات التي تؤدي إلى انحراف الفطرة عن وجهتها الصحيحة على ضوء هذه الأدلةعلى ثلاثة وهي:

١- المخلوقات النارية كالشياطين : وهم أصل هذه المؤثرات وأولها، كما دل على ذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كل مال نحلته عبداً حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[٤].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم، رقم الحديث ٣١٥٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ،رقم الحديث ١٣٨٥.

(٣) أخرجه مسلم ،كتاب اجنة ووصف نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة واهل النار، رقم الحديث ٥٢٤٠.

(٤) أخرجه مسلم ،كتاب الجنة ووصف نعيمها وأهلها، باب صفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة

٢- الأبوان، وفي حال فقد الأبناء أبويهم يقوم المجتمع بهذه الوظيفة، ويعد هذا المؤثر الأقوى والأخطر لشدة تأثير الأبوين على أبنائهما، وقد دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسبب تقديم الشياطين على الأبوين لأنها المؤثرالخارجي الأول المسؤول عن انحراف الأباء أنفسهم.

٣ -الغفلة : وهي المؤثر الثالث في انحراف هذه الفطرة كما دلت على ذلك إذ قال ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[1].

ولو سأل سائل: ما الفائدة من الفطرة ؟ وهل وهي على هذه الحال من الضعف إذ تتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي تؤدي إلى انحرافها ؟، وهل الإنسان ينفك عن واحد من هذه المؤثرات والصوارف، أو كلها؟

والإجابة هي : أن لله حكمة سابغة اقتضت جعل الفطرة بهذه الحال لتمكين الهدف من ابتلاء الإنسان بالخير والشر ومن ثم محاسبته على عمله، و هذا لا يعني أن الفطرة وحدها كافية لذلك إذ لو كانت لما شاع الكفر والإنحراف في بعض الأمم، بل لأصبحت عندهم مناعة تقيهم الكفرفلا يحقق الابتلاء هدفه المنشود، ولله الحكمة البالغة.

واهل النار، رقم الحديث ٥٢٤٠.

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

المبحث الثاني
نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها

المطلب الأول : نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها.

ذكر الملحدون أن الكفر والشرك أسبق من التوحيد على هذه الأرض، وهو زعم مبني على إنكار عبودية الله الواحد الخالق، وزعموا أن مصدر الإنسان والمخلوقات الأساس هي الطبيعة، إذ كان مخلوقا مجهريا يسمى (أميبا) [١] ، «وبفعل الرطوبة تطورت هذه الكائنات حتى وصلت بعد أزمان عديدة إلى صورة القرد، ثم تطور فصار القرد إنساناً، وادعوا أن هذه الإنسان البدائي في طور الطفولة العقلية كان بحاجة إلى إله يعبده ورمز يقدسه فأخذ يعبد آباءه و أجداده ، وقدس النباتات والأشجار، والحيوانات الضخمة، والشمس، والقمر»[٢]، وكثير من الأشياء التي يستعظمها في نفسه[٣]، وحينما بدأت أفكار هذا الإنسان وأحاسيسه تتطور وصار له فكر متطور نوعا ما تخلى عن كثير من الآلهة التي كان يتوجه نحوها بالتقديس والعبادة حتى توصل في عهد الفراعنة إلى التوحيد، وهذا التوحيد لا يعني بالضرورة توحيد الأله الواحد عز وجل بل توجهوا لتوحيد (رع) اله الشمس عند المصريين.

زعم أصحاب هذا الرأي أن الأديان من صنع البشر وليست من الله عز وجل، و قد دفع التَّحدي الذي تفرضهُ ظاهرة الدِّين أمام التَّاريخ كثيرًا من العلماءِ إلى الكفِّ عن محاولة تتبُّع الدِّين ك ظاهرة تاريخيَّة محضة تُشكِّل حلقة من حلقات الوجود الإنساني، وصاروا يعدونه مقترنًا بوجود النَّوع الإنساني إن لم يكن سابقًا عليه نظرا للمعنى التَّطوري للكلمة[٤]، بمعنى أن «الدَّلائل الحفريَّة على وجود التَّجربة الدينيَّة لم تَعد مقترنةً فقط بما يُسمى بالإنسان العاقل، بل تَقترِنُ أيضاً بوجه عام بالهومينيد الأناسيّ، وما تفرَّع عنه من أجناس بشرية أخرى ؛ كالإنسان

(١) أميبا أو أميبه. حيوان أولى يتكون من خلية دقيقة ذات نواة وليس لها جدار، شكلها غير ثابت، ويتغير تبعاً لامتداد الأقدام الكاذبة وانكماشها. ينظر: الصحاح في اللغة والعلوم ص ٣٩.

(٢) ينظر : ما أصل الإنسان، موريس بوكاي ص٣٠

(٣) يُنظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، ج١، ص٤٧٢.

(٤) ينظر : صندوق داروين الاسود، مايكل بهي، ترجمه: مؤمن الحسن وآخرون (مركز تكوين - المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١٤م، ص ٦٤

المُنتصِب، وإنسان النِّيانْدِرتال، بل صار بالإمكان ما هو أبعدُ من ذلك، وهو تَتَبُّع الملامح التَّطوُّرية الأولى للتَّجربة الدينيِّة في شكلها الذَّري الذي يتمثَّل في نظام الأمومة عند الثَّدييات منذ ١٣٥ مليون عام تقريبًا، إذ عزّز نظام الإرضاع الرَّوابط الوجدانيَّة بين الأم وأولادها».[١]

المطلب الثاني : نقد نظرية تطور الدين والرد عليهم.

إدعى أصحاب هذا الرأي أن لهم على هذا الكلام ردان هما :

أولا: القياس على الصناعة، فكما تطور الانسان في صناعته فقد تطور أيضا في ديانته.

ثانياً : أن الإنسان عرف التوحيد متأخرا بعد أن دلت الحفريات على أناس وقعوا في الشرك وقدسوا الهة متعددة.[٢].

وهذا قياس فاسد منطقيا وعقليا، واستدلال باطل فقولهم : أن الدين كالصناعة قياس مع الفارق لعدة أمور:

١- إن الصناعات تعد شيئاً مادياً، أما الأديان فهي شيء معنوي، فكيف يقاس شيء معنوي غير محسوس على شيء مادي محسوس فهو كمن يقيس الهواء على الماء وهذل غير ممكن.

٢- إن الصناعة قائمة على التجربة والملاحظة و من ثم تصل إلى النتائج بعد استكمال مقوماتها، بخلاف الدين إذ لا يقوم على التجربة والملاحظة، ولا تظهر نتائجه في هذه الحياة الدنيا.

٣- أن هذا القياس يلزم الإنسان أن يكون في هذا الزمن صادق التدين خالص التوحيد، لأن الصناعة تطورت تطورا كبيرا، فيما يخالف الواقع ذلك لأنه أحط ما يكون عليه الإنسان من الناحية الدينية ،بسبب تفشي الإلحاد في معظم الكرة الأرضية ، فضلا عن ذلك فلا يوجد شرك في هذا الزمن، لكن الواقع ينافي ذلك، حيث الشرك منتشر شرقا وغربا .

أما إثباتهم الاستدلال بالآثار ومخلفات الأمم السابقة على قولهم هذا، فيجاب عليهم : إن هذه الآثار منقوصة، فلا دليل على هذا الإدعاء سوى التخمين وهو فاسد، بالتالي فإن هذه الحفريات تدل على أن الأمم السابقة ابتليت بالشرك، وهذا ما أثبت لاحقا نصيا في القرآن

(١) مذهب أنساني، جون بول سارتر، ترجمة: عبد المنعم حنفي، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة-مصر، د.ط، ١٩٦٣م، ص١١٢.

(٢) ينظر: كتاب "الله جل جلاله" للعقاد ،ص٢٧.

والسنة النبوية ،ولا يمكن معرفة عبادة الإنسان الأول وعقائده الفكرية من خلال الآثار فقط إذ لا بد من العثور على هذا الإنسان الأول ويجدوا معه آثارا واضحة تدل على عقيدته وعبادته[١] صار لزاما أن ندرك أن الأمم تتقلب في عباداتها متأرجحة بين التوحيد والشرك والعكس، وأهل مكة خير مثال على ذلك إذ كانوا على عهد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام على التوحيد ثم سقطوا في الشرك وبعدها رجعوا إليه بدعوة سيدنا محمد ﷺ، فمعرفة عبادة أمة من الأمم لا يعني أنها لم تعرف سوى تلك العبادة، بل يعني أنها كانت تنتهج هذه العبادة في تلك المحدد فقط.

ظهر جليا فساد هذا القول بعد أن فندته الأدلة السابقة، وماكان ما استدلوا به إلا تخرصات وتوهمات، لا تقوى على الثبات في وجه الحق الواضح البين، وهو: أن أول معرفة الإنسان بالدين هو التوحيد، ثم اتجه نحو الانحراف بصورة تدريجية حتى وقع في الشرك، ذلك أن الإنسان الأول هو آدم عليه السلام كان نبيا يعبد الله وحده لا شريك له موحدا إياه، وورث أبناؤه التوحيد حتى وقعوا في الشرك وهي الغاية التي يهدف إليها البحث، وهي تحديد الأصل الأصيل للعقيدة، وأول المظاهر التي ظهرت فيها على وجه الأرض في أول الأزمنة ، كون هذه المنطقة بدائية حقا، وقد حظرها العلم على نفسه كونها شقة حراما، وأعلن في صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله، «بل عد اقتحامها صكا مزيفا، وتستُّرا بثوب مُستعار، وكل حكم يصدر تحت هذا الاسم يكون صادرًا عن قاضٍ معزول، فاقد للركن الأول من سلطته الشرعية، ومؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلًا تامًّا، و لا سبيل في الخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب»[٢].

وتم الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانات الأمم المعزولة المتخلفة عن ركب المدنية منهجيا، كونه مبنيًّا على فرض أن هذه الأمم المعنية كانت على حالتها هذه التي توصل إليها بحثنا هذا دون أن تمر ب أدوار متقلبة، وهو افتراضٌ لا دليل يثبته، بل ما أثبته التاريخ واتفق عليه المنقِبون عن آثار القرون الماضية هو أن ثمة تأرجحا بين فترات الركود والتقهقر التي سبقت المدنية الحاضرة فضلا عن سبقها بمدنيات مزدهرة فكريا، وأن هذه

(١) ينظر : دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية لسعود بن عبد العزيز الخلف،ص٣٤.

(٢) ينظر : المشترك بين الأديان السماوية والعالمية، سومية حجاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٤٠.

المدنيات المزدهرة قامت بدورها على أنقاض مدنيات بائدة، قريبة أو بعيدة، في أدوار تتعاقب على البشرية إذ أصبحت عملية الحكم أمرا شاقا وعسيرا ذات الوقت بصفة قاطعة بأيهما بدأت دورة الزمان، ولا يمكن تحديد الابتداء الحقيقي بصورة مثبتة تاريخيا كذلك نقول في شأن العقائد الدينية(١)، ومن الممكن أن تكون الخرافات القديمة بداية ديانات، كما يمكن أن تكون نتيجة تحلُّل وتحريف لديانة صحيحة سابقة مزقت أهلها الحروب، أو تسلطت عليهم الآفات الإجتماعية فأفسدتهم، فقلت تبعا لذلك عنايتهم الفكرية بأصول دينهم، وتلقوا ما سمعوه من العرافين والدجالين بالتسليم والقبول، وأصبحت الروايات التي توارثوها شائعة تناقلوها بينهم، ولقد أنصف العلامة (هوفدنج (٢)) حين قال: «إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة بزوغ الدين في النوع الإنساني(٣)، فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى في موضع ما، وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة الديانات متقدمة قليلًا أو كثيرًا حتى إن أَحَطَّ القبائل الهمجية التي نعرفها قد مرت بأدوار شتى، وتطوَّرت تطوُّرًا بعيدًا(٤)».

وعليه صار واضحا مقدار ثبات الفرضية التي استندت عليها البحوث الحديثة كلها وأنها أُسست على أرض هشة لا تنفك تنهار بمن عليها.

وينماز المذهب التطوري باستناده على فرضية أخرى لا دليل عليها وهو قياس المَلَكات والأحاسيس الروحية ،على القوة البدنية والجسمانية ،كما ينتقل الإنسان في حياته بأطوار بين ضعف الطفولة وقوة الشباب والنضج، تواكبها نمو عقلي من ضعف الجهل إلى قوة المعرفة، كما لوح أيضًا أنه بدأ حياته بالسخف والخرافة، ولم يصل إلى العقيدة السليمة إلا بعد جَهدٍ وعناء(٥).

ونحن نسأل قبل كل شيء ما الأصل الذي بُنِيَ عليه هذا القياس ؟، وهل صحيح أن قوى النفس المختلفة تسير في نموها مع بعضها على قدم المساواة ؟، وهل حياة الناس الروحية تواكب حياتهم المادية جنبا إلى جنب في أطوارها كلها ؟، وقد أدركنا أن هاتين

(١) ينظر :الإسلام بين الشرق والغرب ،علي عزت بيجوفيتش، ترجمة : محمد يوسف عدس (مؤسسة العلم الحديث / بيروت)، ط١، ١٩٩٤م، ص ٥٤.

(٢) وهو مؤلف كتاب مكانة الأخلاق من الفلسفة.

(٣) مكانة الأخلاق من الفلسفة، هوفدنج، ص ١١٣.

(٤) نشأة العقيدة الإلهية للعقاد، ص١.

(٥) ينظر : الدين، ص١١٦.

الظاهرتين تسيران أمامنا في طريقين متعاكسين، وعلى فرض أن الإنسان البدائي كان قانعا بكهف يؤويه، وجلد حيوان يستر به نفسه ويقيها الحر والبرد، وشيء من الأعشاب يدفع مخمصته[١]، إلا تترك له هذه الفسحة الكبيرة من الوقت التي وفرها في السعي على معيشته في إعمال فكره وتنقية ذهنه، وتنمية مشاعره الروحية العليا؟ إذ قد أدركنا أن مظاهر الترف في العصور المزدهرة أعمت عقل الإنسان عن التفكر في ذاته العليا ؛ ذلك أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص بقدر ما تنمو وتقوى أضدادُها، ككفتي الميزان، لا ترتفع إِحداهما إِلا انخفضت الأخرى[٢].

وقد يهدينا قليل من التأمل إلى فكرة مفادها أن قياس الأديان على الفنون والصناعات ما هو إلا محاولة للجمع بين أمرين لا تجمعهما حقيقة نوعية مشتركة، بل تختلفات في طبائعهما و فنونهما فبينما حقائق العلوم ثروة واسعة ترحل النفس في طلبها واكتسابها، ويتطلب اقتناؤها وتنميتها علاجًا ومثابرة، واستعانة بأدوات منفصلة في غالب الأمر، وتوجد عناصر حقيقة الدين مستقرة بين الجوانح، وتكون دلائلها واضحة أمام الحواس، يمكن إدراكها بالتفاتة بسيطة، و لا يمكن أن يكون هذا الإدراك حقيقة من خلال جمع محصول معلومات تخص الكون ودقائقه الجزئية، ولا أكثر صعوبة من ذلك كما كان يظن بل إنه يتقدمها ويمهد لها في نظرية شاملة يؤخذ بها بصورة كلية، قبل أن تخضع أجزاؤها وتفصيلاتها للفحص والتحليل المنهجي في ذلك الكون الكبير والرهيب يستوي العالم والجاهل في حيرتهم وإعجابهم به.

ومن خلال المنطق السليم يتم التعرف على ما كانت عليه الأديان فيما قبل التاريخ وتسترشد في معالجة قرائنها، لا بقصص الفنون والمصنوعات، بل بطفولة الديانات المعروفة منذ فجر التأريخ حتى اليوم، ولا تتم هذه المعرفة إلا عن طريق الإستقراء حيث بدأت بعقيدة نقية هي عقيدة التوحيد، ثم تسللت إليها الأباطيل و الأكاذيب على طول العهد، والمؤكد أن هذه هي سنة الديانات كلها إذ تبدأ بداية توحيدية ثم تدخلها الترهات الإنسانية.

ولا يمكننا أن نعقد مقارنة بين تطور الدين مستندين على تطور الفن فإن كان ولابد، فلا يجوز تطبيق هذه المقارنة بالمقاييس السطحية والألاعيب اللفظية الجوفاء بل ننظر إلى

(١) ينظر : أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي) تشارلز داروين، ترجمة أسماعيل مظهر، مراجعة عبد الحليم منتصر (المؤسسة المصرية العامة للترجمة / القاهرة) ،ص ٧٩.

(٢) ينظر : «نظرية التطور عند علماء المسلمين، محمد احميمد». مؤرشف من الأصل في ٠٢ مارس ٢٠٢٢ اطلع عليه بتاريخ ٠٢ مارس ٢٠٢٠.

أعماق الأشياء وجواهرها وحينئذ ينقلب هذا القياس نفسه حجة في يد أنصار الفطرية، ذلك أن تطور الفنون كما هو حال الكائنات الحية تبدأ في صورة بسيطة، ساذجة، متجانسة، ثم تنتقل تدريجيًّا إلى نوع من التكثر والتركيب، ويتعقد تدريجيا كلما بعد عن التوحيد الحقيقي والإلهي ويستوجب أنها سارت أيضًا من الوحدة إلى الكثرة، ومن السهل إلى المعقَّد فضلا عن السرديات الأسطورية والنزوات الخيالية، التي لا ضابط لها من العقل السليم.

أما (التطور بمعناه الأدبي) «وهو الترقِّي من النقص إلى الكمال، فليس قانونًا علميًّا، ولا سُنة طبيعية مطردة، ولا يمكن تطبيقه بصفة آلية على التاريخ البشري، وإنما هو إحدى القيم العليا التي تطمح إليها النفوس، وتشرئبُّ إليها الأعناق؛ فتبلغها حينًا؛ وتنحسر عنها أحيانًا نعم، إن كل مُصْلِح لا بد أن يكون مؤمنًا بإمكان تحقيق هذه الغايات السامية؛ إذ لولا الأمل في قابلية الأخلاق والعقائد للتحول والرقي، لَبطل كل تشريع، ولأصبح من العبث بذل أدنى مجهود للتقدم، ولكن شتان ما بين قابلية الترقي وبين تحققه بالفعل، فهذا مطمح لا يناله إلا مَنْ أدى مهره من العزيمة الصادقة، والمجاهدة المتواصلة. وتاريخ الإنسانية لا يسير في هذا الاتجاه على خطٍّ رأسيٍّ مستقيم».[1]

من هذا نستنتج أن التحليل النفسي، والشواهد التأريخية، والتطور الصحيح ،لا تقوى على الوقوف في وجه الدفاع عن النظريات المسماة بالتطورية التي تجعل الأسطورة والخرافة السردية أصل الديانات، لكنها على عكس ذلك تميل إلى ترجيح نظرية المقابلة غير أن هذا التأييد لا يرقيها إلى صف الحقائق التأريخية المؤكدة كونها لا تقدم ضمانا منطقيا ولا واقعيا تثبت به الحوادث التي كانت تحدث فعلا على وفق ما ألفناه من أوضاع، وليس على ما ينبغي أن يكون عليه الأمر بل هي نظرية ثالثة يمكن الإشارة إليها والأخذ بها في هذه المسألة ومفادها أن الرشد والضلالة في المنطوق الديني ليسا ظاهرتين محضتي التعاقب ارتفاعا وانخفاضا على مر التاريخ بل يعدان ظاهرتين متساويتي الحدوث ومتعاصرتين، موزعتان في كل أمة وفي كل، يحكم اختلاف طبائع الأفراد درجات استقامة حدسهم العقلي ونُبل حسهم الباطني يكاد لا يخلو جيل من نفوس نظيفة السجية تدرك الحقيقة الماثلة أمامهم نقية من شوائب الأساطير والخرافات وأخرى دون ذلك.

(١) المشترك بين الأديان السماوية والعالمية، ص ٤٠.

ولعل هذا الوصف هو أقرب الأوصاف تصويرًا للواقع المعروف « فقد اتفق الموثوق بهم من مؤرخي الأديان على أن أشد الشُعوب همجية ووثنية لم تنفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب»[١].

لكن ثمة ثغرة زمنية مهولة تمتد بين عصور المعرفة البشرية وبين عصور نشأتها، وهذه الثغرة لا يمكن أن تردم ولن تردم مالم يدع أحد أن الوقائع المفقودة الوثائق يمكن إثباتها على وجه قاطع بمثل هذا الضرب من التخمين، استنادا على حُسن المقابلة المجرد وجمال التناسق بينها وبين الوقائع المعروفة، دون تثبُّت من تشابه الظروف والملابسات في طرفي القياس.

لقد عقمت وسائل العلوم الحديثة و التجارب المختبرية المتوالية على تقديم جواب شاف يطمئن إليه الفكر عن ماهية ديانة الإنسان الأولى، ما عدا تلك التي استعانت بالنصوص التي ذكرت ذلك من الكتب السماوية، إذ أنه سيجد فيها ما يطئن اليه من قصص تعضد رأي القائلين بأولية العقيدة الإلهية الصحيحة، لا في الغريزة فحسب، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[٢]، وكذلك في التطور الزماني، «فهذه النصوص تنادي بأن النَّاس بدءوا حياتهم مستقيمين على الحق مؤتلفين عليه، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عَرَضًا طارئًا بعد ذلك»، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾[٣] يمكن القول أن اتساع الخلاف واستمراره بدافع من علم الوراثة وتثقيف جيل الناشئين عليه عقائديا قال رسول الله ﷺ (كُلُّ مَوْلود يُولَد على الفِطْرَة، فأَبَواه يُهَوِّدَانه، أو يُنَصِّرانه، أو يُمَجِّسَانه)[٤] عليه فقد اتفقت الكتب السماوية على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها دون أن يأتيها مرشد ومذكّر، بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم، فكان أبو البشر هو أول الأفذاذ الملهمين، وأول المؤمنين الموحدين، وأول المتضرِّعين الأوابين،وقد يمثل الالتجاء إلى هذه النصوص اعترافا ضمنيا بعجز وسائل العلم البشري الحديث وحدها عن أن تصل بنا من طريق يقيني إلى نقطة البدء الحقيقي للدين،

(١) الدين، ص١٦٦.

(٢) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ،رقم الحديث ١٣٨٥.

والحل الواقعي لهذا الإشكال يكون عن طريق الوحي لا غيره ؛ لأنها قضية الإيمان قضية غيبية محضة، ولا يمكن للعلوم الاستنتاجية والإستقرائية البت فيها وتسويغها .

نستنتج مما سبق أن النظريات التي حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول قياسا على ديانات القرون القديمة والهمجية لذا تم تصوير الأمر لنا على تارات إحداها سقيمة والأخرى سليمة كما تم تلفيق ثالثة بينما لم تكن سوى افتراضات مبنية على أسس غير ثابتة فهي لا تقدم وصفا مقنعا للحقيقة التي رسخت مطلب العلم الصحيح، وإنما تعرض احتمالات تشبه الحق قليلًا أو كثيرًا[1].

وعندما سنعرض لبعض من هذه النظريات نريد أن يكون معلوما عند القارئ أننا لن نماشيها في تلك الدعوى العريضة لذلك فهي ترسم الصورة الأولى المطلقة للحياة الدينية، بل سنتعامل مع الجانب التحليلي بغير قليل من القناعة فضلا عن الجانب التأريخي النسبي، لا أكثر من ذلك.

المطلب الثالث : موقف العقيدة الإسلامية من مسألة نشوء وتطور الأديان

إن للعقيدة الإسلامية وبناؤها في نفوس الأفراد دور هام وعظيم في تكوين الشخصية المسلمة المثالية ؛ لأن العقيدة هي المحرك الأساسي لسلوك الأفراد، وهي القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء النفس البشرية والمجتمع الإنساني الفاضل،وإن أصل الإنسان خلق من نفس واحدة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[2] قالوا: إنهم خلقوا من آدم عليه السلام، وعليه اتفقت كلمة أصحاب الملل، من اليهود والنصارى والمسلمون إلا من شذ منهم واتبع الملاحدة في أقوالهم، وآرائهم، فجميع أصحاب الأديان السماوية يقولون إن الأصل في الإنسان هو التوحيد[3]، والشرك طارئ عليهم[4] ويستدل عليه من وجوه:

(١) ينظر : نشأة العقيدة الألهية، ص٥٠.

(٢) سورة النساء، الآية ١.

(٣) ينظر : عقيدة أهل السنة والجماعة مفهوما وخصائص أهلها، محمد بن إبراهيم، دار خزيمة، الرياض، ط٣، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص١٨٣٦.

(٤) ينظر : العقيدة الدينية نشأتها وتطورها، فرج اله عبد الباري، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص ١١٢.

١- الأنسان الأول آدم عليه السلام كان يعبد الله عز وجل ولا يشرك به شيئا وكان نبيا أيضا فعلم أبناءه التوحيد ؛ إذ سئل النبي ﷺ عن آدم: أنبي هو؟ قال: نعم، نبي مكلم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه(١)، وهذا ما تقر به كل الديانات السماوية والذين يؤمنون بها بأن الله هو الخالق الأوحد في اليهودية والنصرانية والإسلامية، ولم يكن الإشراك به موجودا في أصل الآدميين، بل كان آدم عليه السلام ومن كان على دينه من بنيه على التوحيد لله، لا تباعهم النبوة، فإن آدم عليه السلام أمرهم بما أمره الله به، ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (٢) فهذا الكلام الذي خاطب الله به آدم عليه السلام وغيره لما أهبطهم قد تضمن أنه أوجب عليهم اتباع هداه المنزل.

٢- الشرك وتعدد الآلهة أمر طارئ بين الله سبحانه أن البشرية كانت في أول أمرها على التوحيد، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾(٣) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾(٤).

٣- أكد الله عز و جل في كتبه السماوية على أن الفطرة التي فطر الناس عليها هي التوحيد الخالص وهي فطرة الإسلام، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (٥) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾(٦)، هاتان الآيتان تبينان أن العباد كلهم مفطورون على التوحيد وأنه الأصل في بني آدم، وقد فسر مجاهد الفطرة بأنها الإسلام .

٤- بيّن الله في كتابه أن التوحيد هو أصل دعوة الرسل وإليه دعوا أقوامهم، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ

(١) ينظر : المصدر السابق ص ١١٢.
(٢) سورة البقرة، الآية ٣٨.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٣.
(٤) سورة يونس، الآية ١٣.
(٥) سورة الروم، الآية ٣٠.
(٦) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾(١) ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾(٢) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾(٣) ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾﴾ (٤).

لقد كان للدين وظيفة واحدة محددة هي أن يبين للإنسان ماهو الأفضل والأصلح له وبيان دقيق يصف الغاية الصحيحة لوجوده والأهداف القويمة التي ينبغيي أن يسعى إليها، وفي منتصف القرن الماضي، حين كانت فكرة تطور المجتمع البشري فكرة مسيطرة على الأذهان، وأولع الناس بها أيما ولع وشحذوا أذهانهم و أخيلتهم لإيجاد نظريات عديدة تدور حولها ولكن ربما لا يوجد اليوم من بين المشتغلين بالعلوم الاجتماعية من يؤمن بنظرية تطور المجتمع في خط واحد نحو التقدم وفق مراحل محددة، مع أن فكرة التطور الاجتماعي بهذا المفهوم تعد غير صحيحة، فإن مسألة التغير الاجتماعي شاهدا واقعيا دون شك في ذلك، ووظيفة الدين أن يوجه هذا التغير وأن يدفع به في مسار صحيح، وأن يسعى إلى تصحيح كل تغير يتناقض مع غاياته وهذا ما يدعونا للتساؤل إن كانت العصرانية قد جعلت الدين الحاكم على كل تغير، أم أنها تسعى لأن يتكيف الدين ويتلاءم مع كل تغير؟ إن التغير صحيح مادام يسير في إطار الدين وفي الاتجاه الذي يحقق غاياته، ولن يكون الدين صحيحًا إذا استجاب لكل تغير(٥).

(١) سورة الشورى، الآية ١٣

(٢) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٣) سورة الزخرف، الآية٢٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

(٥) ينظر: فهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد خير، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م: ١/٢٠٥.

الخاتمة

١- أغلب التعريفات للدين عند علماء الغرب ومفكريهم هي تعريفات ذاتية، أي أنها تحاول إثبات صحة ما يؤمن به الإنسان وإخراج مالا يؤمن به ويعتقد به، على عكس علماء الدين المسلمين الذين لهم ضوابط واضحة المعالم في تعريف الدين وتحديد مكانته،رؤية المفكرين الغربيين للدين ونشاته تختلف مع ما يعتده علماء المسلمين.

٢- إنَّ علماء الغرب ومفكريهم ينفون ربط الدين بالوحي، ولا يعتقدون بأنه توجيهات إلهية، بل يعتقدون بأنه عبارة عن جهد بشري قابل للنقد والتعديل بمرور الزمن.

٣- إنَّ علماء الغرب ومفكريهم اختلفوا في محاولة تفسير نشأة الدين، وكثير منهم اعتبره نمط من أنماط السلوك في علم الاجتماع الديني، وانه خاضع لنظرية التطور، ويرون بأن كثير من العقائد الموجودة في الأديان ما هي إلا صناعة ذهنية إنسانية وليست وحي من الله الخالق.

٤- إنَّ علماء الغرب ومفكريهم ينفون ربط الدين بالوحي، ولا يعتقدون بأنه توجيهات إلهية، بل يعتقدون بأنه عبارة عن جهد بشري قابل للنقد والتعديل بمرور الزمن.

٥-ربط علماء الغرب نشأة الدين في حياة الشعوب بالتكيف التطوري، وأن الدين ما هو الا ظاهرة اجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان،.

المصادر

- القرآن الكريم.

أولا: المصادر العربية.

١. أديان العالم، د. هوستن سميث، ترجمة: سعيد رستم، دار الجسور الثقافية، الطبعة الثالثة،١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م

٢. الأديان في علم جان بول ويليم، ترجمة: نسيمة بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت (١٤٢١هـ ٢٠٠١م).

٣. الإسلام بين الشرق والغرب ،علي عزت بيجوفيتش، ترجمة : محمد يوسف عدس (مؤسسة العلم الحديث / بيروت)، ط١ ،.

٤. الاسلام من وجهة نظر علم الاناسة، كليفورد غيرتز، ترجمه أبو بكر باقادر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٥. الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم، اميتافيزيقيا وايتهد، مكتبة النور، ٢٠٠٠م.

٦. أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي) تشارلز داروين، ترجمة أسماعيل مظهر، مراجعة عبد الحليم منتصر (المؤسسة المصرية العامة للترجمة / القاهرة) ، دون تاريخ طبع.

٧. بحث موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها، المرحوم الدكتور محمد عبد الله درازة، منشور مجلة لواء الإسلام، رجب، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

٨. البداية والنهاية، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، ، دار الفكر طبعة، الجزء الرابع : ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

٩. تاريخ علاقة الارتباط بين التنظيم الاجتماعي والأخلاقيات والدين، دافيد سي. لاتي.

١٠. التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين، ترجمة: مصطفى فهمي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥.

١١. التطور الخالق، هنري برجسون، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٤م.

١٢. تفسير الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري ،ت٣١٠هـ، تحقق احمد شاكر، موسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

١٣. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية لسعود بن عبد العزيز الخلف.

١٤. الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار العلم للنشر والتوزيع – القاهرة، ٢٠٠٣م.

١٥. الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، ط٢ (١٣٩٠هـ ١٩٧٠م).

١٦. دين الإنسان، فراس السواح، بحث في ماهية الدِّين ومنشأ الدافع الديني، دمشق: دار علاء الدين، د. ت.

١٧. الدين بين الأخلاق والميتافيزيقا عند شلاير ماخر، ٢٠٠٧م.

١٨. الدين والعلم، شكري بوشغالة، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

١٩. روي آى رابابورت ١٩٦٧ Roy A. Rappaport خنازير السلف: طقوس في علم البيئة من سكان غينيا الجديدة.

٢٠. صندوق داروين الاسود، مايكل بهي، ترجمه: مؤمن الحسن وآخرون (مركز تكوين / المملكة العربية السعودية)، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٢١. ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث وتطورها، سلطان عبدالرحمن العميري، مكتبة النور، ٢٠١٩م.

٢٢. العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٦م.

٢٣. العقيدة الدينية نشأتها وتطورها، فرج اله عبد الباري، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٢٤. عقيدة أهل السنة والجماعة مفهوما وخصائص أهلها، محمد بن إبراهيم، دار خزيمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٢٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ،مكتبة الغرباء الأثري، المدينة النبوية، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٢٦. فهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد خير، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٢٧. القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة،١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٢٨. قصة الحضارة، ديورانت ول : ترجمة زكي نجيب محمود، الأدارة الثقافية ،

٢٩. قصة الفلسفة الحديثة، زكي نجيب واحمد امين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة / القاهرة)، ١٣٥٥هـ.

٣٠. كشف مصطلحات الفنون، التهانوي.

٣١. الكليات، ابولبقاء الكفوي، تحقيق : عدنان درويش، الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٨م.

٣٢. كيف يتكوّن الدين؟، ترجمة وتقديم : رضوان السيّد، جداول للنشر، آذار-مارس٢٠١٧م،

٣٣. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.

٣٤. مذهب النشوء والارتقاء، منيرة الغاياتي، مكتبة النور، ٢٠١٢م

٣٥. المشترك بين الأديان السماوية والعالمية، سومية حجاج، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦. المشترك بين الأديان السماوية والعالمية، سومية حجاج، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧. المقدس والعادي، إلياد مرسيا، ترجمة عادل العوى، صحارى للصحافة، ١٩٩٤م.

٣٨. مكانة الأخلاق من الفلسفة، هوفدنج.

٣٩. الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وزميلاه ،بيروت، دار القلم.

٤٠. موسوعة لالاند الفلسفية،، ترجمة: خليل احمد خليل، إشراف :احمد عويدان، دار عويدا، بيروت – باريس، ط١.

٤١. نشأة الإنسان والإنتقاء الجنسي، تشارلز داروين، ترجمة: مجدي محمد المليجي (نشر وتوزيع المجلس الأعلى للثقافة / القاهرة) ط١، ٢٠٠٥م.

٤٢. نشأة العقيدة الألهية، عباس محمود العقاد، دار المعارف، ٢٠٠٨م.

٤٣. نظرية التطور عند عماء المسلمين، محمد احميمد" . مؤرشف من الأصل في ٠٢ مارس ٢٠٢٢ اطلع عليه بتاريخ ٠٢ مارس ٢٠٢٠.

٤٤. الوجودية مذهب أنساني، جون بول سارتر، ترجمة: عبد المنعم حنفي، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة- مصر،د.ط، ١٩٦٣م.

References:

The Holy Quran.

1. The Religions of the World، Dr. Huston Smith، translated by: Said Rustum، Al-Jisour Cultural House، 3rd edition، 1428 AH - 2007 CE

2. Religions in the Science of Jean-Paul Willaume، translated by: Nasima Badran، University Foundation for Studies، Publishing and Distribution - Beirut (1421 AH - 2001 CE)

3. Islam Between East and West، Ali Izzet Begovic، translated by: Muhammad Youssef Adas (Modern Science Foundation / Beirut)، 1st edition

4. Islam from the Perspective of Anthropology، Clifford Geertz، translated by Abu Bakr Baqader، University Foundation for Studies and Publishing، 1st edition، 1413 AH - 1993 CE

5. The Elementary Forms of Religious Life، Emile Durkheim، Metaphysics and Whitehead، Al-Nour Library

6. The Elementary Forms of Religious Life، Emile Durkheim، 2000 CE

7. On the Origin of Species (The Origin of Living Species through Natural Selection)، Charles Darwin، translated by Ismail Mazhar، reviewed by Abdul Halim Muntasir (Egyptian General Foundation for Translation / Cairo)، no publication date

8. Which is Correct: Creation or Evolution?، Dr. W. A. What is the Origin of Man?، Maurice Bucaille

9. A Study of Islam's Position on Other Religions and Its Relationship with Them، the late Dr. Muhammad Abdullah Duraza، published in the Journal of the Flag of Islam، Rajab، 1377 AH - 1958 CE

10. The Beginning and the End، Ibn Kathir، Abu Al-Fida Ismail bin Umar Al-Qurashi Al-Basri then Al-Dimashqi، Dar Al-Fikr edition، Volume 4: 1407 AH - 1986 CE

11. The History of the Relationship Between Social Organization، Ethics، and

Religion، David C. Lati

12. The Biological Evolution of the Mind and Religious Behavior، translated by: Mustafa Fahmy، Cairo: National Center for Translation، 2015

13. Creative Evolution، Henri Bergson، National Center for Translation، 2004 CE

14. Tafsir Al-Tabari، Muhammad bin Jarir Al-Tabari، Abu Jaafar Al-Tabari، d. 310 AH، verified by Ahmed Shakir، Al-Risala Foundation، Beirut، 1st edition، 2000.

15. Studies in Jewish and Christian Religions، Saud bin Abdul Aziz Al-Khalaf

16. Religion (Preliminary Research for the Study of the History of Religions)، Dar Al-'Ilm for Publishing and Distribution - Cairo، 2003 CE

17. Religion: Preliminary Research for the Study of the History of Religions، Dr. Muhammad Abdullah Duraz، Dar Al-Qalam for Publishing and Distribution - Kuwait، 2nd edition (1390 AH - 1970 CE)

18. The Religion of Man، Firas Al-Sawah، a study on the essence of religion and the origin of religious motivation، Damascus: Dar Alaa Al-Din، undated

19. Religion Between Ethics and Metaphysics According to Schleiermacher، 2007 CE

20. Religion and Science، Shukri Bouchghala، Believers Without Borders for Studies and Research

21. Pigs of the Sulu: Rituals in the Ecology of New Guinea Inhabitants، Roy A. Rappaport، 1967

22. The Black Box of Darwin، Michael Behe، translated by: Moamen Al-Hassan and others (Formation Center / Kingdom of Saudi Arabia)، 1st edition، 2014 CE

23. The Phenomenon of Critique of Religion in Modern Western Thought and Its Development، Sultan Abdul Rahman Al-Omairi، Al-Nour Library، 2019 CE

24. The Mind and Science in the Holy Quran، Yusuf Al-Qaradawi، 1st edition، Wahba Library، Cairo، 1996 CE

25. Religious Doctrine: Its Origin and Evolution، Faraj Al-Abd Al-Bari، 1427 AH - 2006 CE

26. The Doctrine of the Ahl al-Sunnah wa al-Jama'ah: Concepts and Characteristics، Muhammad bin Ibrahim، Dar Khuzaymah، Riyadh، 3rd edition، 1419 AH - 1998 CE.

27. Fath al-Bari: Explanation of Sahih Al-Bukhari، Zain al-Din Abdul Rahman bin Ahmad bin Rajab Al-Hanbali، Al-Ghurabaa Al-Athari Library، Medina، 1st edition 1417 AH - 1996 CE

28. The Concept of Religious Renewal، Bostami Muhammad Said Khair، Center for Foundations for Studies and Research، Jeddah - Kingdom of Saudi Arabia، 1st edition، 1433 AH - 2012 CE

29. The Comprehensive Dictionary، Majd al-Din Muhammad bin Yakub Al-Firozabadi، Al-Risala Foundation، Beirut - Lebanon، 4th edition، 1415 AH - 1994 CE

30. The Story of Civilization، Will Durant، translated by Zaki Naguib Mahfouz، Cultural Administration

31. The Story of Modern Philosophy، Zaki Naguib and Ahmed Amin (Printing Committee for Authorship and Translation / Cairo)، 1355 AH

32. Glossary of Art Terms، Al-Tahanawi

33. The Universals، Abu al-Baqa al-Kafawi، verified by: Adnan Darwish، 2nd edition، Al-Risala Foundation - Beirut 1998 CE

34. How is Religion Formed?، translated and introduced by: Ridwan Al-Sayyid، Jadawel for Publishing، March 2017 CE

35. The Tongue of the Arabs، Jamal al-Din Muhammad bin Makram bin Manzur Al-Ansari، Dar Al-'Ilm for Millions، Beirut - Lebanon، 7th edition، 1986 CE

36. The Doctrine of Evolution، Munira Al-Ghayati، Al-Nour Library، 2012 CE

37. Commonalities Among Divine and Global Religions، Soumia Hajjaj، Dar Al-Kutub Al-'Ilmiyyah، Beirut.

38. Commonalities Among Divine and Global Religions، Soumia Hajjaj، Dar Al-Kutub Al-'Ilmiyyah، Beirut

39. The Sacred and the Ordinary، Mircea Eliade، translated by Adel Al-Awa، Sahara for Press، 1994 CE

40. The Status of Ethics in Philosophy، Hovdeng

41. The Concise Philosophical Encyclopedia، translated by Fouad Kamel and colleagues، Beirut، Dar Al-Qalam

42. Lalande's Philosophical Encyclopedia، translated by Khalil Ahmed Khalil، supervised by Ahmed Owaidan، Dar Owaidan، Beirut - Paris، 1st edition

43. The Origin of Man and Sexual Selection، Charles Darwin، translated by Magdy Mohamed El-Meligy (Published and Distributed by the Supreme Council of Culture / Cairo)، 1st edition، 2005 CE

44. The Origin of Divine Doctrine، Abbas Mahmoud Al-Aqqad، Dar Al-Maaref، 2008 CE

45. The Theory of Evolution Among Muslim Scholars، Muhammad Ahmimd. Archived from the original on March 2، 2022، accessed on March 2، 2020

46. Existentialism: A Humanism، Jean-Paul Sartre، translated by Abdel Moneim Hanafi، Egyptian House for Printing and Publishing، Cairo - Egypt، undated، 1963 CE.